مركزية القوة في سياسة الكيان الصهيوني

عمر سعادة *

بضع ساعات فقط فصلت بين العملية العسكرية المحدودة التي نفذها حزب الله في تموز/يوليو عام ٢٠٠٦، وبين العدوان الصهيوني الشامل على لبنان والذي استمر لمدة ٣٣ يوماً، وأسفر عن مئات الضحايا من المدنيين اللبنانيين، الأمر الذي يطرح أسئلة عديدة عن خلفيات السياسة الصهيونية في شن الحروب وعن مدى الاستهانة بأرواح البشر، سواء أكانوا من الصهاينة أو من سواهم.

إن تتبع مجريات السياسة الصهيونية وخصوصاً فيما يتصل بقرارات شن الحرب، يظهر للمرء شكلاً من أشكال عبادة القوة وتقديسها بحيث يبدو في وضوح أن هذا الكيان عندما يوضع أمام جملة من الخيارات لحل مشكلة أو للخروج من مأزق ما فإن خياره الأول، لمعالجة أي مشكلة سواء كانت مشكلة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. هو الحل العسكري.

لقد نمت هذه النزعة باتجاه الحلول العسكرية بدءاً من حرب ١٩٤٨ عندما حقق الكيان الصهيوني أول انتصاراته عبر الحرب.

لقد تشكلت الثقافة السياسية للمجتمع الصهيوني على ضوء الحروب والاعتداءات الصهيونية والحروب المتعاقبة بدءاً من حرب ١٩٤٨ والتي انتهت بنصر سهل على الجيوش العربية التي شاركت في تلك الحرب.

لقد تشكلت ثقافة الحرب الصهيونية من رحم تلك الحرب التي تخللها الكثير من المجازر والجرائم وعمليات التهجير والطرد القسري للسكان من عشرات المدن والقرى الفلسطينية.

حرب ١٩٤٨

ويشير الكاتب الإسرائيلي، توم سيجف، إلى تأثير النصر في حرب ١٩٤٨ في الوعي الصهيوني والسياسي العام، بالقول: "عمقت حرب الاستقلال إلى حد بعيد العداء بين الشعوب، واعتبرت حرب وجود لا خيار فيها. وتحولت إلى حرب انتصار وسيطر، وشجع

(*) كاتب فلسطيني مقيم في دمشق.

هذا كله التصلب لا التساهل. ووجدت الحكومة نفسها أمام مزاج شعبي أشد تطرفاً من المزاج الذي كان سائداً بين وزرائها، ولم يكن في إمكانها تجاهل ذلك، وحتى داخل الحكم، كان هناك من فكر وتحدث كمنتصر، إذ ألهب الانتصار خيالهم"(١).

أما على الصعيد الشعبي، فقد ارتبط الانتصار نفسياً، بانفلات غرائز السيطرة والتملك، بحيث توحدت هزيمة العرب بتحقيق الذات الإسرائيلية. ويصف الأديب الإسرائيلي موشيه ميلانسكي نشوة الانتصار التي اجتاحت النفسية الإسرائيلية عقب حرب ١٩٤٨، وشكل الاستجابة الجماعية للانتصار، فيقول: "لقد استولت على السكان شهوة عارمة للسلب والنهب، أفراد، وجماعات، كيبوتسات، رجال، نساء، وأطفال، الجميع انقضوا على الغنائم: أبواب ونوافذ وعتبات وملابس داخلية وقرميد وبلاط وخردة وقطع آلات،..... وبالإمكان أن نضيف: كراسي مراحيض، ومغاسل، وحنفيات، ومصابيح كهربائية"(٢).

لقد ولدت في هذه المرحلة أهم مقولات الثقافة السياسية الإسرائيلية، التي أصبحت بالتدريج، أهم ثوابت الفكر السياسي الإسرائيلي، مثل: "إن العرب لا يفهمون غير لغة القوة" و "إن إسرائيل لم تقم بفعل قرارات الأمم المتحدة" و "ليس مهماً ما يقوله غير اليهود، المهم ما يفعله اليهود". وبفعل تلك الحرب، تشكل في إسرائيل وعي وجودي من نوع خاص، ارتبط فيه التحقق الذاتي الإسرائيلي بامتلاك القوة واستخدامها، وبضرورة التكيف مع واقع الصراع المستمر. يقول موشيه دايان في خطاب له عام ١٩٥٦: "نحن جيل من المستوطنين، وبدون الخوذة الحديدية والمدفع، لن نستطيع أن نبني منزلاً، أن نغرس شجرة. ويجب أيضاً، أن لا ندير رؤوسنا بعيداً حتى لا ترتعش أيدينا، إنه قدر جيلنا، أن يكون مسلحاً وعلى أهبة الاستعداد، وأن يكون قوياً وقاسياً، حتى لا يسقط السيف من بين أيدينا، وتنتهي حياتنا"(٣).

وجاءت حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، لتشكل، من المنظار الصهيوني، برهاناً ملموساً على صحة وفعالية معادلة القوة، فقد عرض العرب على إسرائيل، عقب انتصارها في الحرب، ما كانوا يرفضونه قبلها: السلام والاعتراف، مقابل تنازل إسرائيل عن مكاسب الحرب الأخيرة. غير أن العرب تأخروا، هذه المرة أيضاً، في استيعاب التحولات التي أحدثها نصر حزيران في الوعي السياسي الإسرائيلي. فقد توصلت إسرائيل بغالبية جمهورها وقواها السياسية، إلى أن اختبار القوة أكثر جدوى من اختبار السلام.

وقد صور سمحا أيرليخ زعيم حزب الأحرار في عام ١٩٦٧، التأثيرات السريعة والعميقة التي أحدثتها حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ في الوعي السياسي الإسرائيلي، بالقول: "إن حرب الأيام الستة قد أدت إلى إعادة نظر فكرية داخل الجمهور والحركات والأوساط، والعديد من الأشخاص. وقد أحدثت تغييراً لم يحلم أحد بإمكان حدوثه بين ليلة وضحاها. هذه التغيرات فرضت عملية اصطفاف جديدة للقوى داخل الأحزاب، وإعادة النظر في

(١) توم سيغف، الإسرائيليون الأوائل ١٩٤٩، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى، نيقوسيا ١٩٨٦، ص (٤٤).

(٢) مجلة الأرض، العدد (٨)، ٧/١/١٩٧٥، نقلاً عن دير شبيغل ١٩٧٤/٤/١١.

(٣) مركز الأبحاث، اليوميات الفلسطينية وبيروت، المجلد (٢) ١٩٦٥، ص (١١٨).

المواقف التي تعرضت لتيار جارف، وكأنها لم تكن"[٤]. وفي عام ١٩٧١، لخص رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق، ديفيد اليعازر، مغزى انتصارات إسرائيل على العرب بقوله: "ينبض فينا اليوم إحساس بأن القوة هي أمر حتمي. لذلك أقسمنا بأننا أقوياء ومسلحين، وقررنا أن لا نعتمد على فضل الكرماء، وأن لا نرهن وجودنا بموافقة الآخرين"[٥].

وكان أبرز تلك المفاهيم التي تبلورت بفعل الحرب هو مفهوم السلام، وعلاقته بمبدأ القوة. فقد حدد موشي تابنكين، من قادة حزب الماباي في عام ١٩٦٨ المفهوم الجديد للسلام بالقول: "إن السلام الحقيقي معناه استيطان المناطق (المحتلة)، سواء وافق العرب أو لم يوافقوا، تماماً كما حدث سابقاً..... وإذا كان الاستيطان يحول دون السلام فإن مجرد وجودنا يحول دون السلام"[٦].

أما وزير المواصلات الأسبق، وأحد زعماء حزب العمل، موشي كارمل، فتحدث عن النقاش الذي كان يدور في إسرائيل حول مستقبل المناطق المحتلة، فقال: "إن هذا النقاش يمنحنا القوة، فبفضل هذا النقاش، تشكل رأي موحد وقوي يقول: إن القدس ومنطقة عتسيون (في الضفة الغربية) والجولان وغزة يجب عدم إرجاعها"[٧].

وفي مجتمع يدين بكل منجزاته للقوة، تصبح القوة نفسها محور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويبدو السلام، وكأنه نقيض للقوة، أو كابح لاستخدامها، بينما تبدو الحرب وكأنها المفتاح السحري لكل الأبواب والجواب المناسب لكل الأسئلة، ولذلك يتم الإعلاء من وزن مؤسسة الحرب وأهميتها في الحياة العامة، إلى درجة إضفاء هالة من القداسة الدينية عليها. يقول بن غوريون: "إن خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش، فهو الذي يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف الأردن، مفسراً بذلك، ومحققاً لكلمات أنبياء العهد القديم" ويقول في مناسبة أخرى: "أن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء"[٨].

إن حقيقة كون الجيش الإسرائيلي هو مؤسسة الإجماع الوطني في إسرائيل، ومحور الحياة الاجتماعية، ترجع إلى دوره الوظيفي الخطير، وإلى مستوى تغلغل المؤسسة الأمنية في الحياة العامة، بحيث يصعب الفصل بين الجيش والمجتمع. يقول الكاتب الإسرائيلي، عاموس بيرلموتر: "إن الجيش لم يتكون ليصبح في الموقع الجانبي من تجربة الأمة، أو الوقوف على هامشها، وإنما تكون ليصبح في مركز القلب منها. لقد صنع الجيش الأمة، وجعلها حقيقة قائمة..... وتصبح قضية عدم الفصل بين جيش الدفاع وبين مجتمعه على درجة كافية من الوضوح، عندما تظهر الأزمة الحاسمة، حيث يعني تدمير إحدى الوسيلتين تدميراً للوسيلة الثانية، بمعنى أن تدمير الجيش يعني زوال إسرائيل، والعكس بالعكس"[٩].

فالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية هي ممر حتمي لجميع أفراد المجتمع، وهي مصدر اعتزاز

(٤) مجلة الأرض، العدد (٢) ١٩٧٧/٧/١، ص (٣).
(٥) د. رشاد عبد الله الشامي "الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية" المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، ١٩٨٦، ص ١٧٤- ١٧٥.
(٦) يشعياهو ليفمان "المركب الديني في التطرف الإسرائيلي" مجلة الأرض، العدد (٢) شباط/فبراير ١٩٨٩، ص (٢٤)، نقلاً على مجلة"غيشر" شتاء ١٩٨٦.
(٧) غنيم، مصدر سبق ذكره، ص (٦٤).
(٨) اليعزر شبيد، "ظل حرب يوم الغفران"، مجلة الأرض العدد (١) ١٩٧٧/٩/٢١، ص (٤٦).
(٩) مجلة الأرض، العدد (١٢) ١٩٧٨/٣/٧، ص ٣ نقلاً عن دافار ١٩٧١/٨/٢٠.

للفرد بمقاييس المجتمع الإسرائيلي. حيث تناط بهذه المؤسسة مهمة صياغة التجربة الإسرائيلية بكاملها، وليس مجرد حماية هذه التجربة، وإذا كانت القوة هي ركيزة أساسية في معادلة الوجود والتطور بالنسبة إلى إسرائيل، فإن المؤسسة العسكرية هي التجسيد الحي لهذه القوة. وكلما اجتازت هذه المؤسسة اختبارات الصراع بنجاح، ازدادت ثقة الفرد الإسرائيلي وارتباطه النفسي بها، وباعتبار أنها الجهة الوحيدة القادرة على إشباع حاجته إلى الأمان، وإحساسه بالاستعلاء على الأعداء الخارجيين.

ويترتب على جملة الحقائق السابقة أن تصبح القوة غاية في حد ذاتها، لتحل موقع القيم المطلقة (الخير والحق والعدل...) في سلم القيم الفردي والجماعي. فتصبح القوة بديلاً للحق وللعدل، فالقوة، وليس الحق، هي مصدر الوجود والاستمرار في الوجود في الوعي الفردي والجمعي عند جمهور الإسرائيليين. وإذا كان من الصعب إقناع شخص ما بأن وجوده واستمراره بكيفية معينة، هما نقيض للحق، فمن اليسير أن يقنع المرء نفسه بأن وجوده واستمراره بتلك الكيفية هما الحق عينه. ويشير الكاتب الإسرائيلي، يورام بيرى، إلى أن اليمين الراديكالي في إسرائيل قد طور مفهوم جابوتنسكي وبيغن حول الحق والقوة والذي يتلخص في عبارة: "إن الحق التاريخي لا يتجسد كقوة، وإنما القوة هي أساس الحقوق". وإن اليمين الإسرائيلي الجديد، وعلى لسان ممثله الأهم أرئيل شارون تبنى مقولة: "الحق للقوة ***Right is Might***(١٠) ولا تنحصر هذه المقولة باليمين المتطرف فحسب، بل بالقطاع الأوسع من الجمهور الإسرائيلي، فالتجربة التاريخية للقوة السياسية الإسرائيلية، برهنت أن ما يميز اليمين عن الوسط الواسع في إسرائيل، هو أن اليمين يتحدث بصوت مرتفع، حول القضايا نفسها التي يفكر فيها الوسط، ولكنه لا يجهر بها.

ويتحدث الكاتب الإسرائيلي، عاموس أيلون - من موقع نقدي - عن الدور التربوي الديني والعلماني، الذي عمل على تنمية نزعة تقديس القوة وعن نتائج ذلك، فيقول: "لقد نمت هنا خلال سنوات إيديولوجية طوباوية كاذبة، أشاعها حاخامون مشهورون، قدسوا العنف، حتى أن أحدهم أشاد بـ "فريضة إبادة الشعب"... وفي موازاة ذلك، أشيعت هنا خلال سنوات رواية غيبية تاريخية، بحسبها أن أبطال الاتسل وليحي، هم الذين أقاموا إسرائيل بقنابلهم، حتى أنهم هزموا بهذه الطريقة الإمبراطورية البريطانية العظيمة". ويخلص أيلون إلى القول: "إن الدمج القاتل بين النزعة الإنسانية اليهودية، وبين نزعة القوة السطحية، تمخضت عن ثمار متوقعة"(١١).

صورة جامدة للعدو

تحتل صورة العدو حيزاً واسعاً، بين مكونات الثقافة السياسية الإسرائيلية. فعندما يكون الصراع هو محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وعندما يتم تضخيم هذا

(١٠) توم سيغف، مصدر سبق ذكره، ص (٤٧).
(١١) المصدر نفسه، ص (٨٨).

الصراع، وتصويره على أنه صراع وجودي دائم، فإن الثقافة السياسية، بل الثقافة على العموم، ترتكز على استقراء خصائص هذا العدو، واستنباط أشكال إدارة الصراع ضده، وتصور العلاقة المستقبلية معه استناداً إلى خصائص الصراع المحتدم وطبيعته في مواجهته.

وتتسع قائمة أعداء إسرائيل لتضم، إلى جانب العرب، مثل دولاً عظمى الاتحاد السوفياتي السابق، ومجموعات دولية كبرى مثل الدول الإسلامية. وليس شرطاً أن يكون جميع الأعداء، في التجربة الصهيونية، في حالة حرب فعلية مع إسرائيل، بل هم كما تصورهم الأدبيات السياسية الإسرائيلية، أعداء محتملون. وتنبع اعتبارات إسرائيل في تحديد قائمة أعدائها من اعتبارات عقائدية، ومن اعتبارات الدور الوظيفي لإسرائيل كحامية لمصالح الغرب الرأسمالي، في مواجهة شعوب الشرق الأوسط، أما الأعداء الفعليون، فهم العرب بعامة والفلسطينيون على وجه الخصوص.

ورغم التفاوتات الطفيفة في تصنيف الأعداء العرب، بحيث يتم تقديم دولة، وتأخير أخرى، وفق مستوى انخراطها في الصراع، أو بعدها الجغرافي عن ميدانه، إلا أن العرب، على العموم، ينظر إليهم من المنظار الإسرائيلي، باعتبارهم كتلة واحدة تتقاسم عناصرها جملة من الصفات المشتركة، ما يجعلهم عدواً "نموذجياً" للكيان الصهيوني.

إن صفات العربي، كنقيض في صراع وجودي، تستمد بمجموعها من صورة الصراع، كما هي مجسدة في العقل الإسرائيلي، وهي صفات ثابتة ثبات الصراع نفسه، غير أن نظرة سريعة إلى مكونات الفكرة الصهيونية، تضع المرء أمام عدد لا يحصى من الشواهد، على أن معظم صفات العربي ـ كعدو نموذجي ـ سابقة للصراع نفسه، فمنذ البداية أقدمت الحركة الصهيونية على محاولة تغييب الفلسطيني وجودياً، من صورة الصراع "أرض بلا شعب". مع وصم المحيط العربي بصفة أساسية هي البدائية، باعتبارها ينبوعاً لمجموع الصفات التي ألصقت بالعربي فيما بعد، ومع نشوب الصراع بأشكاله المتباينة على ارض فلسطين، أصبحت البدائية صفة لكل العرب، بمن فيهم الفلسطينيين.

وإذا كان التخلف صفة نسبية (أقل أو أكثر تخلفاً)، فإن البدائية ـ وخاصة في الثقافة السياسية الإسرائيلية ـ هي صفة مطلقة، وتنطوي على دلالات الهمجية، كنقيض للحضارة ومجموعة المثاليات التي توجه السلوك الإنساني، الفردي والجماعي، وهذه الصورة هي أشبه ما تكون بالصورة التي رسمها العقل الاستعماري الغربي، في القرون الماضية لشعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا. حيث كان وصف شعب من الشعوب بالبدائية، يعني تجريده من كل الصفات الإنسانية، ويشكل مبرراً أخلاقياً مقبولاً لاستعماره واستغلاله، وربما لإبادته. ويجري الكاتب الإسرائيلي، أولك بنتسر، مقارنة بين مفهوم العدو في الثقافة السياسية الغربية، وبين مثيله في الثقافة السياسية الإسرائيلية، من خلال رصد سلوك

المستوطنين اليهود اتجاه الفلسطينيين في المناطق المحتلة، عقب اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، فيقول: "وبناء على المفهوم الآخر (الإسرائيلي) الاستبدادي، فإن العدو ليس آدمياً، ولا يتمتع بحقوق إنسانية، إن الفصل بين المحارب والسكان غير المحاربين، ليس عنصراً أساسياً في هذا المفهوم، ذلك أنه عنصري في جوهره. وبناء عليه، فإن الذم والاتهام يشملان الشعب بكامله. والعقاب تغذيه مشاعر الكراهية والانتقام، ومن دون وازع أو قانون، بما في ذلك التطلع إلى عقاب غير قانوني، ووحشي، وبأقصى الحدود"(١٢).

إن إجمالي الصفات التي يلصقها العقل الإسرائيلي بالعدو العربي، هي نقيض الصورة التي يرسمها الإسرائيلي لنفسه، حتى لو لم تكن موجودة لديه فعلاً ـ فالعربي في العقل الإسرائيلي ـ شرير بطبعه، ولا يمكن تغيير موقفه من إسرائيل التي يحقد عليها حقداً دينياً وقومياً وثقافياً، والتي ينظر بحسد إلى منجزاتها وتطورها؛ العربي غدار، ولا يمكن التعامل معه إلا من خلال فرض الأمر الواقع عليه، فهو لن يسالم إسرائيل، أو يسلم بوجودها إلا مرغماً. وبصورة عامة، فالعرب، كما ترتسم صورتهم في العقل الإسرائيلي، متخلفون وأنظمتهم فاسدة ورجعية ودكتاتورية، والديمقراطية شيء غريب بالنسبة إليهم.

وتبذل مؤسسة الحكم الإسرائيلية، عبر دوائرها وإدارتها المتعددة، جهوداً مركزة ومنظمة، لترسيخ هذه الصورة للعربي في العقل الإسرائيلي، ويبرز بشكل خاص، دور المؤسسات التربوية والتعليمية والعسكرية والإعلامية، في مجال تزييف الوعي الإسرائيلي اتجاه حقيقة الإنسان العربي، حيث ترمي هذه الجهود إلى تحقيق أهداف عدة أهمها:

١ ـ تبرير الذات. فالإسرائيلي: عبر محاكمة عقلية ـ أخلاقية طبيعية، سيجد نفسه مجرد مستعمر غاز، بنى كل منجزاته وأمجاده على حساب شعب آخر، مسبباً له قدراً هائلاً من المعاناة والآلام المستمرة منذ بداية المشروع الصهيوني، الأمر الذي ينسف الأساس الأخلاقي للمشروع الصهيوني برمته. ولكن إذا بنيت هذه المحاكمة على أساس أن الشعب الآخر، هو عدو يحمل كل الصفات المنفرة، فإن الإسرائيلي يخرج من هذه المحاكمة، منتصراً باعتباره صاحب حق ورسول حضارة وفارساً عصرياً، في مواجهة الهمجية والشر.

٢ ـ خلق حاجز نفسي بين اليهودي والعربي يقوم على الكراهية وعدم الثقة والتحفز الدائم والرفض المتبادل باعتباره شرطاً لازماً لاستمرار حال التوتر الداخلي، ومبرراً لمواصلة الصراع ضد المحيط، حيث يتم الدمج بين وظيفة إسرائيل، المتجسدة في وعي نخبتها الحاكمة، وبين الميول النفسية غير الواعية لدى غالبية الجمهور الإسرائيلي. وتقوم إسرائيل بتدعيم هذا الحاجز النفسي على جانبي حدود فلسطين المحتلة. فالتعبئة الداخلية المستمرة تصنع مثل هذا الحاجز داخل نفسية الإسرائيلي، بينما تعمل السياسيات الإسرائيلية العدوانية اتجاه الفلسطينيين في الداخل والخارج، واتجاه المحيط العربي، على تعميق الرفض الشعبي العربي للكيان الصهيوني.

(١٢) حاييحم جانجبي، موشي ماشوفير، آكيفا أور، "الطبيعة الطبقية للمجتمع الإسرائيلي"، ترجمة إبراهيم منصور، دار ابن رشد، بيروت ١٩٧٩، ص (١٠).

٣ ـ التصدي لبعض التوجهات السلمية الإسرائيلية المغايرة للمزاج الشعبي السائد، والمعترضة على السياسة العامة للنخبة الحاكمة إزاء موضوعة السلام مع الفلسطينيين والمحيط العربي، فالأصوات الإسرائيلية، التي ترتفع بين فترة وأخرى للمطالبة بوضع حد للعداء الأزلي تجاه الفلسطينيين والمحيط العربي، يتم إسكاتها في العادة بإشهار صورة العدو النموذجي في وجهها واتهامها بالخيانة الوطنية، انطلاقاً من أنها تدعو إلى التصالح مع العدو التاريخي الذي يسعى إلى إبادة الإسرائيليين.

ولأن الصراع، في مجمله، يوضع، في التجربة الإسرائيلية، خارج إطاره التاريخي فإن صورة العربي، كذلك، هي صورة ثابتة غير قابلة للتغير أو التطور، فصفاته السابقة ملازمة لوجوده، و إذا حدث أي تطور فيها، فنحو الأسوأ، فالفلسطيني، مثلاً، باعتباره النقيض الموضوعي للإسرائيلي، وانطلاقاً من انخراطه في الصراع بصورة أعمق، تزداد ملامحه السلبية نفوراً، وتضفي عليه صفات يكاد يختص بها، كوصفه بأنه إرهابي، وبأنه يمارس القتل بصورة فطرية، إشباعاً لغريزة العدوان. إن جمود صورة العدو العربي يعني ثبات أسس الثقافة السياسية الإسرائيلية. يقول الكاتب الإسرائيلي، تسفي كاسيه: "إن الصورة التي يرسمها الإسرائيلي العادي للعالم، نجد فيها مكان العربي ثابتاً، لدرجة أن زيارة السادات للقدس، أيضاً، لم تنجح في زحزحته. وهكذا يختلط علينا الواقع"(١٣).

وتبدي النخبة الحاكمة في إسرائيل ذعراً حقيقياً من إمكانية تحرر العقل الإسرائيلي من شبح العدو العربي، أو مجرد حدوث تغير نسبي في صورته، ما يعني حدوث انهيارات خطيرة في مجمل سلم القيم والمثاليات التي تشكل، ليس مجرد الثقافة السياسية السائدة راهناً، بل أسس الإيديولوجية الصهيونية نفسها، وما ينبثق منها من سياسات تجاه العرب. وعلى سبيل المثال، فإن صورة منظمة التحرير الفلسطينية، التي تم رسمها وتعميمها على الجمهور الإسرائيلي هي صورة عصابة من القتلة هدفها تدمير إسرائيل. ورغم مفارقة هذه الصورة للواقع فإن النخبة السياسية ما زالت تتعامل داخلياً وخارجياً مع هذه الصورة المتوهمة. وقد نشرت صحيفة دافار الإسرائيلية في شهر شباط/ فبراير ١٩٨٩، خبراً مفاده "إن رئيس الحكومة الإسرائيلية يتسحاق شامير يتجاهل منذ عام ١٩٨٦ تقارير شعبة الاستخبارات الإسرائيلية حول الاعتدال من جانب منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) فقد كشفت مجلة أميركية نقلاً عن ضابط كبير في سلاح الاستخبارات الإسرائيلي قوله: إنه منذ عام ١٩٨٦ أعدت الاستخبارات العسكرية تقارير سرية جداً، عارضت الموقف الرسمي للحكومة، والقائل: إن اعتدال م. ت. ف، هو حيلة إضافية من جانب المنظمة، التي تهدف إلى تدمير إسرائيل. وكشف الضابط الإسرائيلي، إن هذه التقارير التي جاء فيها أن م. ت. ف مستعدة للحل المتعلق بإقامة دولتين منفصلتين، تم رفضها بغضب من جانب الحكومة"(١٤).

(١٣) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨ ص(٣٦٩)، نقلاً عن هآرتس، ١٩٦٨/٤/٢٦.

(١٤) الشامي، مصدر سبق ذكره، ص (١٤٧).

وفي مواجهة الحديث داخل بعض الأوساط الإسرائيلية عن نزوع م. ت. ف. إلى التسوية السياسية، ومن أجل الحفاظ على الحضور الدائم لصورة العدو العربي، بدأت النخبة الحاكمة في إسرائيل حملة تعبئة داخلية وخارجية منظمة، للتشكيك في نيات م. ت. ف، السلمية، ولشد الانتباه إلى المخاطر الجديدة، التي يمثلها الوضع الراهن، كالحديث عن احتمالات قيام سوريا بشن حرب جديدة، وما تملكه من أسلحة كيماوية يمكن أن تضرب العمق الإسرائيلي. (باشر جهاز الدفاع المدني الإسرائيلي عقب ذلك توزيع كمامات الغاز على الإسرائيليين، بمن فيهم سكان تل أبيب وبئر السبع). وكذلك الحديث عن الصواريخ بعيدة المدى التي تملكها العربية السعودية.... إلخ، وكل هذه الدعاوى إنما تهدف إلى تثبيت الحضور الدائم لصورة العدو في العقل الإسرائيلي.

إن حصيلة الجهد التاريخي للنخبة الحاكمة في مجال استحضار صورة العربي وتثبيتها، كعدو نموذجي في العقل الإسرائيلي، يمكن أن يقف المرء على بعض جوانبها، عبر استعراض بعض الاستطلاعات رأي العام الإسرائيلي التي تعكس رؤية الإسرائيلي للعربي، وموقفه منه.

فإذا نظر المرء إلى الفلسطينيين في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، باعتبارهم "عينة" قريبة وملموسة للعربي، فإن موقف الإسرائيلي إزاء هذه العينة، يشير إلى ما يأتي، وفقاً لاستطلاعات الرأي العام الإسرائيلي التي أجريت في خلال السنوات القليلة الماضية.

في عام ١٩٤٨ ـ أعلن أكثر من نصف الجمهور الإسرائيلي (٥٣ في المئة) أنهم يرفضون السكن المشترك مع العرب(١٥).

ـ أعلن ٦٥ في المئة من الإسرائيليين أنه لا يمكن الوثوق بأغلبية العرب في إسرائيل. ودعا ٦٠ في المئة إلى تعزيز الإشراف عليهم من قبل أجهزة الدولة(١٦).

في عام ١٩٨٥ ـ وافق ٦٦ في المئة من الإسرائيليين على فرض عقوبة الإعدام على الفدائيين الفلسطينيين الذي يتم إلقاء القبض عليهم. بينما أعلن ٦٠ في المئة منهم عن تأييدهم لإصدار عفو عام عن أعضاء المنظمات الإرهابية اليهودية، الذين ارتكبوا عمليات قتل منظمة ضد الفلسطينيين(١٧). وفي عام ١٩٨٦ ـ أعرب ٩٢ في المئة من الشبيبة اليهودية، أن لليهود حقاً كاملاً في كل فلسطين، بينما اعتقد ٨ في المئة منهم أن للعرب حقوقاً ضئيلة في فلسطين(١٨). وفي عام ١٩٨٧ اعتبر ٥,٨ في المئة من الشبيبة الإسرائيليين أن الفلسطينيين في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ يتمتعون بحقوق أكثر من اللازم، وينبغي تقليصها. كما تبين أن ٥٣ في المئة من الشبيبة الإسرائيليين يعارضون منح العرب حقوقاً متساوية في الاقتراع للكنيست كما يعارضون منحهم حرية التعبير(١٩). في عام ١٩٨٨ـ أيد ٤٦ في المئة من الإسرائيليين سياسة القبضة الحديد التي تمارسها السلطات الإسرائيلية اتجاه الفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع، بينما اعتبر ٤٠ في المئة من الإسرائيليين أن هذه

(١٥) الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨، ص (٤٤٩)، نقلاً عن صحيفة الاتحاد، حيفا ١١/١٩/.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) الشامي، مصدر سبق ذكره، ص (١٨٣).

(١٨) نقلاً عن مجلة الأرض، العدد (٧) ١٩٧٨/٩/٢١.

(١٩) يورام بيري، "اليمين الراديكالي"، العدد (٣) حزيران/يونيو ١٩٨٨ ص (٢٤٤)، نقلاً عن دافار ١٩٨٤/٥/١١.

السياسة لينة جداً، وطالبوا بتشديد القمع الإسرائيلي اتجاه الفلسطيني. أما الذين اعتبروا أن تلك السياسة قاسية، فلم يزيدوا عن ٧ في المئة من الإسرائيليين(٢٠). إن جملة الاستطلاعات السابقة، لا تعكس كراهية الإسرائيليين للفلسطينيين ومزاجهم العام نحوهم فحسب، بل تكشف ما وصلت إليه عملية تشويه وتزييف الوعي الإسرائيلي اتجاه الإنسان الفلسطيني بخاصة، والعربي بعامة. الأمر الذي يجعل فكرة معايشة العربي أو مسالمته، ترتطم بركام ضخم من الرواسب داخل النفسية والعقلية الإسرائيلية، كلما لاحت في الأفق فرصة لتحقيق السلام. يقول الكاتب الإسرائيلي، أولك نيتسر، مصوراً سلوك المستوطنين اليهود ومؤيديهم عقب اندلاع الانتفاضة الفلسطينية: ".... لقد عرضوا شريكنا المحتمل للمفاوضات حول السلام في صورة قاتل بشع، مدجج بالسكاكين والقنابل والفؤوس"(٢١).

السلام: فائض علاقة

يبدو السلام، في الثقافة السياسية الإسرائيلية، أشبه ما يكون بالدولاب الخامس (الاحتياطي) في السيارة، الذي ينساه السائق ما دامت الأمور تسير على ما يرام، ولا يتذكره إلا في الدروب الوعرة. ولا يلجأ إليه إلا مضطراً، عندما تسوء الأمور.

فأول ما يتطلبه السلام هو الرغبة في تحقيقه، انطلاقاً من الإحساس بالحاجة إلى الانتماء للمحيط الإقليمي، والتعايش معه بصورة إيجابية. وهو ما تفتقر إليه التجربة الإسرائيلية، فمنذ البداية، تصور هيرتزل أن دولة اليهود ستكون "حصن الحضارة في وجه الهمجية"، مصادراً فكرة الانفتاح على المحيط أو التعايش معه. وفي مطلع الستينات، حدد بن غوريون انتماء إسرائيل عندما قال: "إن دولة إسرائيل هي جزء من الشرق الأوسط من حيث العامل الجغرافي فقط، وهو في جوهره عامل جامد، أما من حيث العوامل المصيرية الحاسمة، مثل الطاقات الحركية والإبداعية والإنمائية، فإن إسرائيل جزء من اليهودية العالمية ومن هذه اليهودية العالمية تستمد إسرائيل بأسها، ووسائل صياغة الأمة وتطورها. بقوة اليهودية العالمية إياها، سوف تبني إسرائيل مراراً وتكراراً"(٢٢).

أما شكل العلاقة مع المحيط، فقد أشار إليه وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق، أبا أيبان، عندما قال: "إن أمل إسرائيل هو أن تصبح الولايات المتحدة الصغرى. نحن لا نريد أن تكون لنا علاقات مع الشرق الأوسط على غرار العلاقات القائمة بين سوريا ولبنان، ولكننا نريدها على غرار علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع بلدان أميركا اللاتينية، من حيث التعامل الاقتصادي. مع ملاحظة الفوارق التاريخية والثقافية واللغوية. ونريد أيضاً الحفاظ على طابعنا الغربي"(٢٣). ولاشك في أن هذه الرؤية التي تقوم على رفض المحيط والاستعلاء عليه، لا يمكن لها أن تشكل حافزاً لصنع السلام أو التعايش البنّاء مع المحيط العربي. وقد أدت النجاحات المتتالية لإسرائيل في مجال اختبار القوة، إلى تنامي الثقة بالقوة الذاتية،

(٢٠) عاموس ايلون "عقارب واقتلاع"، الملف (نيقوسيا)، العدد (٣) حزيران/يونيو ١٩٨٤، ص (٢٤٧)، نقلاً عن هارتس ١٩٨٤/٥/١٨.

(٢١) تسفي كاسيه: "لا يهتمون عندنا بالأمن، بل بالجيش"، الملف، العدد (٥٦) تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨، ص (٧٣٨)، نقلاً على ملحق هآرتس ١٩٨٨/١٠/٢٨.

(٢٢) نشرة الأرض، العدد (٦) ١٩٨٩/٢/١٤، ص (١٧٥) نقلاً عن دافار ١٩٨٩/٢/٩.

(٢٣) هآرتس ١٩٨٤/١/٣٠.

إلى حد الاستغناء عن فكرة التصالح مع المحيط. ويصور الكاتب الإسرائيلي، توم سيجف، رؤية الحكومة الإسرائيلية الأولى للسلام مع العرب في عام ١٩٤٩ فيقول: "... وما لبثت أن تبلورت مدرسة فكرية في وزارة الخارجية، اعتقدت بأن السلام غير مجد. وروى وزير الخارجية، شاريت، لأعضاء كتلة ماباي في الكنيست، أن ثمة أشخاصاً في أسرة وزارة الخارجية يتمتعون بتفكير أصيل، وهم يساهمون مساهمة مهمة في تكوين التفكير الجماعي في الوزارة، ويميلون إلى الاكتفاء باتفاقات الهدنة"(٢٤).

وترى غالبية الإسرائيليين اليوم، إن السلام ليس ضرورياً. فما دامت إسرائيل تملك من القوة ما يحقق لها الأمن والاحتفاظ بمكاسب الحروب السابقة، فإن السلام يبدو نوعاً من الترف السياسي، الذي لا يستحق دفع أي ثمن مقابل تحقيقه، وخصوصاً عندما يكون هذا الثمن يتضمن الانسحاب من مناطق جغرافية واسعة، يعتبرها معظم الإسرائيليين جزءاً من أرض الآباء والأجداد، وضمانة للأمن. أما النخبة الحاكمة، فغالبيتها ترى في السلام عملية مكلفة، لا تتطلب التخلي عن جزء من الأراضي المحتلة فحسب، بل وتمنع اكتمال المشروع الصهيوني، وتضر بالوظيفة المنوطة به لمصلحة الإمبريالية، كما تنطوي على احتمالات تفجر الصراعات الداخلية داخل المجتمع الإسرائيلي.

وفي الحقيقة فإن قطاعاً واسعاً من الإسرائيليين يرفضون السلام، لأنهم لا يعرفونه، فمنذ بداية الغزوة الاستيطانية الصهيونية لفلسطين، وهي تعيش حال صراع مستمر، بوتائر مختلفة، لدرجة أن حال الصراع أصبحت هي الوضعية الطبيعية التي كيّف الإسرائيلي نفسيته وقدراته وفقها. وأصبح السلام، إضافة إلى غموضه وغرابته، وضعية شاذة تتطلب تكيفاً مغايراً. وإذا كان حال الصراع قد خضعت للاختبار، وتمخضت عن نتائج إيجابية من المنظور الإسرائيلي، فإن السلام يمثل وضعاً معاكساً، ينطوي على تنازل عن المكتسبات التي تحققت من خلال الصراع. ويقدم الكاتب الإسرائيلي، أورى أفنيري، لوحة معبرة للسلام في العقل الإسرائيلي، حيث يروي: "ألقيت محاضرة في كيبوتس أتحدث فيها عن السلام، وعن إسرائيل مندمجة في شرق أوسط متحد ومزدهر، تكرس مواردها لإنشاء صناعة تقنية بالغة التطور، بدلاً من الحرب. وأنصت أبناء الكيبوتس بأدب، وانتباه، وتشكك. إذ أن كل ما قلته كان أشبه بالخيال العلمي بالنسبة إليهم. فعندهم، الحرب هي الحالة الطبيعية للأشياء. وهم يعرفون ما يصنعون من أجل الحرب، فالكفاح لا يخيفهم. غير أن السلام شيء آخر، أبعد من مدى رؤيتهم، وشيء محير، بل لعله مخيف، شأنه شأن أي شيء مجهول. وعندما حان وقت الأسئلة. وقف أحد أبناء الكيبوتس، والذي بدا أشبه ما يكون بقائد دبابة من ضباط الاحتياط، ووجه لي سؤالاً عملياً مباشراً فقال: تريدنا أن نتخلى عن الكثير من الأراضي، وعن ثروة سيناء النفطية، وعن العمق الاستراتيجي، وعن أشياء أخرى، فما الذي سنحصل عليه في المقابل. قصاصة ورق؟؟"(٢٥)

(٢٤) هآرتس ١٩٨٤/٣/٣٠.

(٢٥) نشرة الأرض الأسبوعية، ١٩٨٥/٩/٦، نقلاً عن معاريف ١٩٨٥/٨/٢٠.